



لا نبالغ إذا قلنا أن أحد أسباب ضعف الأمة الإسلامية في العصور الأخيرة هو هذا الصراع الخفي والمعلن، والدائب الذي لم ينقطع، بل اشتد أواره في هذه الأيام، هذا الصراع بين تيارين رئيسيين تيار التغريب والليبرالية العلمانية، وتيار التشبث بالهوية الحضارية الإسلامية . ليكون للأمة وجهة توليهما وبوصلة ترشدتها وأهداف تسعى إليها وتعمل لها ، الواقع الان هو أن القيم متضاربة والمرجعيات مختلفة والثقافة غير متجانسة، وهذا الذي أوجد هذه العزلة وهذه الهوة بين من رفع شعارات الوطنية والليبرالية العلمانية وبين جمهور الأمة التي تحتفظ بعقيدتها وثقافتها مما أدى إلى إعاقة كل مقترن للنهضة، ولم تحصد الشعوب إلا التخلف والضعف، بل أصبح الرأي العام مشوشًا نتيجة هذا الانقسام في حياتنا . إن أي إقلاع حضاري لا يتم إلا إذا اجتمعت القلوب على شيء كيّن، شيء سام فوق العصبيات والعرقيات، الدين هو الذي يجمع الشتات بأقوى الروابط، وهو المؤسس الذي يرضي به الجميع أو ترضي به الأكثريّة، لأنّه تجمع على الجانب الذي به كان الإنسان إنساناً، ولا مجال لتصور الإنسان دون إيمان، فماذا تكون هوية الإنسان في البلاد التي غالبيّة سكانها مسلمون؟ وعندما نتحدث عن الهوية فإنما نعني شيئاً ثابتاً دائماً مهما تغيرت الظروف أو تقدمت العلوم.

الدين شيء أساسي في حياة البشر، هو الذي يكون شخصية الإنسان فيصبح له رؤية واضحة في القضايا المطروحة، وله رأيه في النظام الدولي وما يسمى (العدالة الدولية) . وله رسالة يحملها وبالتالي له دور إيجابي في تقديم البشرية نحو الأفضل ، لا يمكن للإنسان أن ينظر للآخرين نظرة قيمية إلا إذا كان صاحب رؤية وهوية ، الإنسانية اليوم معطوبة من طول الاغتراب وعدم الالكتراش بالخير والعدل، وعندما يتحصن المسلم بهويته يتكون عنده القدرة على الاختيار المناسب، فهو لا يرفض كل ما عند الآخر إذا كان صحيحاً ومفيداً ولكنه يختار. والمسلم يعلم أن هذا الدين ليس منحصراً في المسجد أو في قانون الأحوال الشخصية، لأنّه يقرأ القرآن كل يوم وهو يرى توجيهات القرآن التي تغطي مناحي الحياة السياسية والاقتصادية الاجتماعية.

هل يمكن تجاهل قضايا مثل المنشأ والمصير والغايات، إن تجاهل مثل هذه الأمور لا يفرز إلا رؤوسا فارغة ليس لها هم إلا الاستهلاك والحرص على الحياة أي حياة ولو كانت تافهة.

في الغرب يعلمون أثر الدين في حياة الإنسان وأنهم بحاجة إليه كما يذكر المؤرخ الأمريكي (ول دبورانت) 1 ولكن الليبراليين عندنا والعلمانيين يريدون إزاحة الدين بالكلية من حياة الإنسان ، تقول وزيرة الخارجية الأمريكية سابقاً (أولبرايت) في كتابها الجبروت والجبار : " فالدين جزء كبير مما يحفز الناس ويشكل آراءهم في السلوك العادل والصحيح " (2) وفي بريطانيا الملكة هي رئيسة الكنيسة وفي هولندا أن يكون الملك بروتستنتيا شرط رسمي (3)، وفي البرتغال ينص الدستور على أن الكاثوليكية هي دين الأمة وأسبانيا تسمح بوجود مرشددين روحيين في الثكنات العسكرية والمستشفيات والسجون . يقول وولتر رسل ميد في مجلة الشؤون الخارجية : " إن الدين يلعب عادة دورا رئيسيا في السياسة والهوية والثقافة الأمريكية ، فالدين يشكل شخصية الأمة ويساعدها في تشكيل أفكار الأمريكيين عن العالم " (4) وتضم المؤسسة العسكرية الأمريكية 3000 من المرشددين الروحيين حسب تعبيرهم ، والمحافظون الجدد في الحزب الجمهوري لهم وجهة دينية وفي الكيان الصهيوني يوجد ما يعرف بمعاهد تكريس الهوية اليهودية وهي معاهد تابعة لوزارة التعليم الرسمية (5) فالغرب لم يتخلى عن الدين بالكلية كما يدعى الليبراليون أو كما يتوهمن أو يتجاهلون ، ولكن الغرب غالب مصالحه الدينية إذا تعارضت مع أسس الدين أو الأخلاق .

جاء في صحيح البخاري أن اليهود قالت لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً " يعني قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام بينا) فإذا كانت أمة من المنافقين للإسلام حاسدين لأهله قد قالوا في آية واحدة لاتخذناها عيداً فكيف يكون الأمر إذا نظرنا إلى القرآن العظيم كل

هناك تجارب حديثة توضح لنا كيف أن أمة من الأمم أخذت بالتقدم العلمي ولكنها لم تنسلاخ عن هويتها وعاداتها وتقاليدها ، ألم تحزم اليابان أمرها وتحدد هدفها وتنقل التقنية الغربية وذلك عندما هددت في القرن التاسع عشر بضرورة فتح التجارة مع أمريكا ، لقد تصرفوا ببلادة وعلموا أنه لابد من تعلم التقنية الغربية ، لقد تأثرت اليابان كي تبقى أكثر يابانية كما يقول الكاتب (فلسيان شاللي) (6) ويرى (لي كوان يو) رئيس سنغافورة سابقاً أنه يجب تطوير صيغة غير الصيغة الغربية للديمقراطية ، ومع الأسف لم تتكرر تجربة اليابان في العالم الإسلامي ، يستثنى من ذلك ما قامت به ماليزيا وما تقوم به تركيا اليوم رغم صعوبة الأمر .

إن من المفاهيم التي تؤسس للهوية والتي ركز عليها القرآن كثيرا مفهوم (الأمة) وهو مفهوم عقدي سياسي قد لا يوجد له نظير عند الأمم الأخرى ، والذي يعني الوحدة في المصدر والوحدة في الاتجاه ، وهو معاير تماماً لمفاهيم الوطنية الضيقة أو القومية أو أي تجمع على أساس جغرافي أو اقتصادي ، الوطن الإسلامي الأول الذي تكون في المدينة استمد حقيقته من كيان الأمة ، لأن الأمة تستمد حقيقتها من الوطن وحدوده الترابية ، حتى لو وجدت وحدات سياسية منفصلة ولكن الفرد المسلم يشعر بالانتماء إلى الأمة ، وهذا يعطيه شعوراً بالأمن ، وجدت داخل الحضارة الإسلامية انتتماءات عرقية وديانات أخرى ولكنها عاشت تحت مظلة هذه الحضارة لأنها حضارة مستوعبة وفيها عدل ورحمة ، وعندما تزعزعت المؤسسة السياسية يبقى مفهوم الأمة قوياً وحفظ كيان المسلمين .

إن الغرب وإن رفع شعارات مثل حقوق الإنسان ونشر قيم الحرية والديمقراطية ولكن النظام الرأسمالي هو المهيمن ، وهوية هذا النظام هي (العولمة) والمؤسسات الكبرى التي نتجت عنها (البنك الدولي ، منظمة التجارة العالمية ، الشركات

العلمة عابرة الحدود والقرارات) وخطورة هذه الهوية الرأسمالية أنها تدعى الإنسانية في أهدافها وأعمالها ، وفي حقيقتها مالية ثقافية ، وفي جانب منها دينية .

العلمة مرحلة من مراحل الرأسمالية الليبرالية ، وهي تعني التمدد نحو العالم ، أي إعادة تشكيل العالم وفق النموذج الغربي كما تقول الباحثة (حنة أرنست) وكأنهم يريدون أن يتنفس العالم ببرأة واحدة وينظر بعين واحدة ، وهو شيء مخالف لطبيعة البشر ولسنن الله في اختلاف الخلق ، ينظر المسلم إلى العالم بأنه ينقسم إلى عالمين : عالم الإسلام وعالم غير المسلمين ، أو أمة الإجاهة وأمة الدعوة ، والعلمة تريد فرض قانون واحد وكأن ليس للمسلمين دور في هذا العالم .

أطلق مصطلح العولمة في البداية لما رأوا أن الإعلام حول العالم إلى قرية كونية ، ولكنه وجد مجده الأول في الاقتصاد ، ثم جاء محمولاً على أعناق وأكتاف ثورة الاتصالات ، واكتسحت الشركات الكبرى الدول والحدود ، وسجلت نفسها خارج السواحل للتهرب من الضرائب ، وأصبح مدراء الشركات هم رؤساء العالم ، وظهرت فكرة الليبرالية التي تنادي بتقليل نشاط الدولة في مساعدة الأفراد والمجتمع وانتهاء دولة الرفاه ، وأن هذا العصر هو عصر (السوق) وساعدت التقنية الحديثة في ربط فروع هذه الشركات مهما كانت متباعدة ، وأصبح السريع يلتهم البطيء وكان في السابق الكبير يلتهم الصغير .

ولكي تستمر هذه الرأسمالية المتفوقة أو المتوجهة لابد من مستهلكين ، ولابد من إشاعة ثقافة الاستهلاك في كل الأرض ، وإذا استعانت بعض الشعوب على ذلك فلابد من تغيير ثقافتها وفكرها أيضاً ، فهذه العولمة ليست قوانين تجارية وحسب ، بل قيم معينة تطبق على تركيب مجتمع ، وكلمة السر هنا هي التسويق marketing كل شيء قابل للتسويق ، وما هي إلا أن يقول الإعلام أن هذا الشيء ضروري من ضروريات الحياة حتى يبادر المستهلك إلى الشراء ، لقد أصبح الإنسان محكماً من الأشياء التي صنعتها يداه (7) إنها وثنية جديدة ، وبواسطة الإعلام (كلب الحراسة للرأسمالية) يتطور الاستهلاك ليصبح مفروضاً على الإنسان ، ليأكل أكثر ويتبضع أكثر ويتملك أكثر ، يكبس المشتريات وإن لم يستعمل الكثير منها ، هناك أطراف تملّي المواقف وأطراف تستقبل وتذعن . وبسبب ضخامة النظام الصناعي (شركات ، سوبرماركتات) فقد أصبح كثير من الناس موظفين وبالتالي هم تابعون لرؤسائهم ، هم لم يببعوا قوة عملهم فقط بل باعوا شخصياتهم (ابتساماتهم ، أذواقهم ، صداقاتهم) خوفاً من الفصل من أعمالهم .

بواسطة العولمة فإن البنك الدولي يغير النمط الثقافي للمجتمع ، ففي بلاد مثل مصر أو الهند تغير القوانين طلباً للاستثمار ، والبنك الدولي يقدم قرضاً لدولة من دول الطغيان فيتصرف الحاكم وأسرته في تبديد هذا القرض وحين يأتي موعد دفع الديون لا يقول الحاكم أنه اشتري عمارات وسيارات وأودع الباقي في بنوك سويسرا ، ولذلك توزع مسؤولية الدين على أفراد الشعب عن طريق تقليل الإنفاق العام وتقليل دعم السلع الأساسية ، وكان الوطن أصبح برسم البيع . واستغلت العولمة الأمريكية لتدخل في خصوصيات المجتمعات الأخرى ، ففي مؤتمر عن المرأة عام 2000 تم إضفاء الصفة القانونية على الانحطاط الأخلاقي وترجم مصطلح feminism بالأنثوية وهذا لا يعني شيئاً فالأنثى انتهى والمعنى الحقيقي هو فصلها عن الرجال وتأكيد هويتها الفردية على حساب هويتها الاجتماعية كزوجة وأم وبنت . والليبرالية الجديدة تبحث عن مفهوم جديد لسلطة الوالدين ، أي عن إضعاف هذه السلطة لأنها بنظرهم من معاقل النظام الديني . وعندما تأتي الشركات الكبرى إلى بلد ما فإنها تأتي أيضاً بأنماط ثقافية معينة (هدايا الكرسمس ، هالوين دي ، حمامات سباحة مختلطة)

إن العولمة بتغليبها الجانب الديني أدت إلى الاستلاب والاغتراب ، لأن جيل الشباب الذي لا يجد في الجامعات نهمه إلى الثقافة وإلى الدين الذي يلائم فطرته ، سيدفعه ذلك إلى صرعات وثنية أو الحيرة والضياع . وفي العولمة أصبح الترف مقبولاً

في أكثر المجتمعات حيث تحولت هذه المجتمعات إلى عبادة المظاهر والأشياء المادية ، ومن الغريب أن العولمة وهي تدعو إلى توحد العالم تحت سياق معين ولكنها في الوقت نفسه تحاول تفتيت المجتمعات ، فهي تناولت بدعم جماعة دينية صغيرة بحجة أنها أقلية ، وجماعة عرقية صغيرة بأنها أقلية وهكذا الشواذ جنسياً أقلية .

قد يقال : إن هذه العولمة تعزز الهوية عند الشعوب التي تتسلح وتعتز بدينه وثقافتها ، لأنها ترى أنها مستهدفة فترجع إلى تراثها لتصمد أمام هذه الموجة وأيضاً فإن ثورة الاتصالات وسهولتها مما قرب بين أبناء البلد الواحد وأبناء الدين الواحد رغم بعد المسافات فيما بينهم . هذا صحيح ولكن المشكلة والتخوف أن تكون ردة الفعل تجاه العولمة متتشنجه ولا تستطيع أن تعامل مع الواقع بطريقة صحيحة ، ولا تمتلكمبادرة للبديل المناسب ، والمفروض أن يكون البديل جاهزاً ، فالإسلام بطبيعته عالمي يقدم الخير للبشرية ويستفيد من العلم النافع ، وهناك فرق بين الثقافة والعلم (الطبيعي) فالثقافات تتعدد والعلم مشاع بين البشر ، والمسلم لا يقف حائراً أمام أي جديد ولكنه يختار ما فيه نفع "لن يتأثر المسلمون بغرب يرونهم مبشرأً بقيم استهلاكية وفضائل لا أخلاقية وبركات الإلحاد " كما يقول مستشار الأمن القومي الأمريكي سابقاً (برجينسكي) (8) وعقلاء الغرب يدركون هذه الحقيقة ، يقول (آلان تورين) عن الذين يطلبون من المغتربين الاندماج والذوبان في المجتمع الغربي : " ليس موقفاً ديمقراطياً أن يقال للمغتربين تجردوا من ثقافتكم وادخلوا عراة إلى عالم جديد ، إنها صفافة واحتقار للثقافات والخبرات المغایرة لخبراتنا " (9)

لقد فشلت كل المشاريع التغربية خلال القرن الماضي ولم تتحقق أي إنجاز يذكر ، والدول العربية مثال صارخ على ذلك ، ما زال الجدل قائماً حول الهوية ، بل تجذرت الخصوصيات الوطنية ، حتى أصبحت معتقداً للإنسان العادي فضلاً عن المثقفين ، وبولغ في العادات والخصائص المحلية حتى أصبحت كل قرية لها عاداتها ، وتغذى هذا المفهوم الضيق للسياسات التعليمية والإعلامية ، وهذا نكوص وتراجع للوراء ، وحتى تحقق الدولة نموذجها الوطني الليبرالي لابد أن تحطم بناء الأمة ، وهذا الذي أدى وسوف يؤدي إلى الفشل والتراجع .

لم تنجح العولمة بل قسمت العالم إلى فقراء فاقدين للأمل وأغنياء صم الآذان ، وجعلت الأجيال القادمة ترث أرضاً قاحلة ، وبعض الدول الرأسمالية عندما وجدت آثار العولمة راحت تسن القوانين التي تصب في مصلحتها .

إن التغيير يكون بالتجديد من الداخل وليس بالتنازل عن الهوية ، وهذه الهوية لا يمكن العدول عنها ولا عن جزء منها لأنها الإسلام ، القرآن هو الذي أعطانا الهوية (هو سماكم المسلمين من قبل) ، ونحن حين نتحدث عن الإسلام نرفض التفريط والتبسيط تحت شعارات تطالب بالتنازل عن الأصول والتخلي عن المعقول في سبيل إرضاء أطراف تجسس بعض المسلمين ، وحتى يصل الأمر إلى الأذية في الدين ، ولأن فصل المسلمين عن دينهم هو مناصرة للعدو الأجنبي .

الكتلة الكبرى هي التي تستطيع أن تناور في مثل هذه الأجواء الخطيرة ، فالعولمة إذا تركت فإنها سوف تؤثر على كل الخصوصيات ، كتلة العالم الإسلامي (من طنجة إلى جاكارتا) كما يعبر المفكر الجزائري مالك بن نبي ، تناور من خلال تنمية النظام التعليمي لتكون قادرة على الاستجابة للمتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية ، من خلال نظام معرفي أكاديمي مشترك ، ولعل إشاعة اللغة العربية يكون شيئاً مهماً لتقابل عولمة الإنكليزية ، وفي تركيا بداية طيبة لتعليم اللغة العثمانية وهي بالأحرف العربية ، لتمكن الأجيال الجديدة من قراءة تاريخها ، فاستعادة تاريخنا الحضاري خاصة مما يعطي الشباب الثقة والانتماء .

الكتلة الكبرى هي التي تستطيع البحث عن الأحلاف الممكنة ، وهي التي تخطط لصيانة الهوية دون انغلاق يؤدي إلى مزيد من التدهور ، وهي التي تملك القدرة على الاستقلال الاقتصادي وهو شيء مهم لصيانة الهوية .

الإسلام هو المستعد للمنازلة ثقافياً وحضارياً ، لأنه الوحيد الذي يملك رؤية واضحة لدور الإنسان ونظرته للكون والحياة ، ونظرته للعام ووسائل العلم ، الملل والمذاهب والشعوب الأخرى لا تستطيع مقاومة الثقافة الغربية التي تكتسح العالم اليوم ، وهذا أحد أسباب الخوف من الإسلام وأحد أسباب اهتمام العولمة الثقافية بالعالم الإسلامي خاصة .

المصادر:

- 1- دروس التاريخ / 103
- 2- الجبروت والجبار / 242
- 3- أيليا حريق : الديمقراطية وتحديات الحداثة / 258
- 4- الهيثم زعفان : مكانة المتدين في أمريكا وأسرائيل / 44
- 5- المصدر السابق / 68
- 6- ساطع الحصري : ابحاث في القومية / 436
- 7- أريك فروم : الإنسان المستلب / 17
- 8- برجنسكي : الفوضى / 182
- 9- آلان تورين : ماهي الديمقراطية / 187

المصادر: